السنة الأولى ماستر
التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830
المقياس: التحولات الكبرى في غربي البحر المتوسط

سقوط غرناطة 1492 وانعكاساته على الضفتين الإسلامية والأوربية -2

أ.د. عبد القادر فكاير

حصار غرناطة وسقوطها :

كان على أبو عبد الله بن أبي الحسن أن يسلم غرناطة عند سقوط بسطة والمرية ووادي آش حسب الشروط التي كانت ضمن المعاهدة التي أبرمها مع النصارى عند إطلاق سراحه. وبناء على ذلك أرسل ملك قشتالة مبعوثا إليه يدعوه إلى تسليم غرناطة ، غيرأن شعب غرناطة أرغموا ملكهم على رفض طلب القشتاليين.ولما علم فيرديناند بذلك الموقف شرع في الاستعداد للحرب ، وقامت غرناطة من جهتها تستعد للمقاومة تحت قيادة موسى بن أبي غسان.

وفي ربيع سنة 1490 خرج فيرديناند إلى غرناطة على رأس قوة تتألف من خمسة آلاف فارس وعشرين ألف من المشاة . وعاث في حقولها ومزارعها فسادا ، فقام بقطع الطرق ، وخرج إليه المسلمون فوقع بينهما قتالا عنيفا ، استطاع المسلمون قتل العديد منهم. ولما يئس فرديناند من اختلال غرناطة ؛ رجع من حيث أتى . ورغم خروج أبوعبد الله مع قواته من أجل استرداد بعض الحصون ، منتعشا بنشوة رد الأعداء عن غرناطة ، مدفوعا بشعور الحماسة الدينية لدى الناس ، إلا أن ذلك الموقف جاء متأخرا . ففي أفريل 1491 عاود الملك الملك الكاثوليكي الهجوم على رأس جيش يتألف من ثمانين ألف رجل ، وفي طريقه إلى غرناطة أنشأ مدينة محاطة بالأسوار لحماية نفسه وجيشه أطلق عليها اسم سانتا في(Santa-Fe) .وأصبحت غرناطة تحت الحصار الذي دام لمدة سبعة أشهر، فقل الطعام واشتد الجوع وانقطعت الإغاثات التي كانت تأتي من الجنوب ، عندئذ اجتمع الأعيان والفقهاء وقواد الجيش مع أبو عبد الله ، وتناقشوا حول المخرج الذي يختارونه لوضعهم المتردي إما التسليم أو الموت ، وفي الأخير اختاروا التسليم . غير أن هناك من وقف ضد هذا الموقف وهو موسى بن غسان ، ولم يكن لموقفه من أثر . وأرسل أبو القاسم عبد الملك إلى معسكر النصارى مزودا بشروط التفاوض، وبعد أيام من التفاوض اتفق الطرفان على وضع معاهدة التسليم التي وقع عليها الطرفان في 25 نوفمبر 1491 تضمنت سبعة وستين بندا ، وحددت المعاهدة مهلة التسليم بسبعين يوما ، لكن أبو عبد الله سلم غرناطة قبل الموعد المحدد بشهر ، وذلك في 2 جانفي 1492.ثم خرج منها باكيا وأمه عائشة تعاتبه بمقولتها الشهيرة ((فلتبك كالنساء ملكا لم تدافع عنه كالرجال)). ولما اطمأن الملك الكاثوليكي من خضوع غرناطة التام دخلها ، وقد سبقه إليها قوة كبيرة من الجند ، . وفعل أبو عبد الله كما

فعل عمه ، فلم يتحمل البقاء على ذلك الوضع خاصة وأن فرديناند كان ينظر إليه بعين الريب ، فغادر الأندلس مع أسرته ، واتجه إلى المغرب حيث أقام في مدينة فاس .ويفهم من كلام صاحب " أخبار العصر " أن أبو عبد الله لم يخرج من الأندلس عن طيب خاطر حين قال : ((نزل قرية أندريش وأقام بها ينتظر ما يؤمر به ، ث أن الطاغية ظهر له أن يصرف الأمير محمدا إلى العدوة ، فأمر بالجواز وبعث للمراكب تأتي لمرسى عذرة)) .

انعكاسات سقوط غرناطة على الأندلسيين:

لقد أبدى الأسبان في السنوات الأولى من سقوط غرناطة سياسة لينة تجاه المسلمين ، متظاهرين باحترام معاهدة الاتفاق ، غير أن الخشية والشك كانت تساور أنفسهم في أن يثور المسلمون ، خاصة وأنه كان لديهم صلات بمسلمي الممالك المغربية والدولة العثمانية . ولكن الروح الصليبية التي تميز بها الملكان الكاثوليكيان، التي كانت واقعة تحت تأثير الكنيسة ، جعلت سياسة التساهل مع المسلمين لم تدم طويلا ، وبدأت تتحول إلى انتهاك شروط الاتفاق ، وذلك بتعديل نصوصه . ففي سنة 1495 فرضت ضرائب جديدة على المسلمين فقط. ولم تستمر سياسة التظاهر بالالتزام بالشروط أكثر من أربعة سنوات ، حتى بدءوا في خرقها . ففي سنة 1499 بدأت سياسة التنصير التى بها الكاردينال خيمينيس عند انتقاله إلى غرناطة ،وقد أدت تلك الحركة إلى اعتراض المسلمين ، حيث ثار سكان حي البيازين في ديسمبر من نفس السنة . كما قام الكاردينال بغلق المساجد وحرق الكتب والمخطوطات التي بلغ عددها حوالي 800 ألف . وفي 12 فيفري 1502 صدر مرسوم ملكي يخير المسلمين بين النصرانية مغادرة الأندلس . وقد وصفت بعض المصادر الإسلامية تلك السياسة ، فقد جاء في كتاب "أخبار العصر": ((فلما رأى ملك الروم أن الناس تركوا الجوار[أي الهجرة] وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن ، أخذ في نقض الشروط ...فصلا فصلا...وزالت حرمة المسلمين وأدركهم الهوان والذلة ...وفرضت عليهم ...ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصير وأكره عليه ...ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله إلا من يقولها في قلبه)). وقد زادت معاناة أهل الأندلس مع ظهور ديوان التحقيق الذي يقوم بإجراء تحريات عن حقيقة بقاء المسلمين على دينهم ، وكان المدان ينال مختلف أنواع التعذيب منها الموت حرقا.

ومن بين ردود فعل المسلمين ، أن العديد منهم تنصر ، خاصة عندما كان النصارى يستعملون الوعد والوعيد لتنصير الأعيان ، وهذا ما جعل العامة يتبعونهم. وهناك من كانوا يخفون إسلامهم . ولما وصلت أخبار معاناتهم إلى إخوانهم في بلاد المغرب وتخوفهم عن مدى صحة إيمانهم أرسل لهم أحد فقهاء الجزائر سنة 1504 ، وهو أحمد جمعة المغراوي خطابا يطمئنهم بصحة إيمانهم ومما جاء في ذلك الخطاب : ((إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر ...فالصلاة ولو بالإيماء ، والزكاة ولو كأنها لفقيركم أو رياء ، والغسل ...ولو عوما في البحر ... إن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فاحرموا بالنية ... وإن أكرهوكم على حرام فافعلوه منكرين بقلوبكم)).

كما أدت عمليات التنصير الإجباري إلى قيام الثورات ، كالثورة التي وقعت في حي البيازين سنة 1499 لكنها قمعت بكل قوة ، وسرعان ما اندلعت ثروة أخرى أعنف منها في جبال البشرات في جانفي 1500، فاستولى الثوار على العديد من الحصون وقتلوا قسيسي القلعة اللذين كلفا بتنصيرهما وهما دي ميدلين والونسو غاسكون ، كما أسروا العديد من

سكان الأحياء المسيحية ، وأرسل فرديناند قوات عسكرية بقيادة الدون ألونسو دي أغيار (Aguillar) . غير أن المسلمين ألحقوا بهم هزيمة فادحة فقتلوا منهم الكثير على رأسهم دي غيار نفسه ، وذلك في مارس من سنة 1501 . ولوضع حد لتلك الثورة لجأ الملك إلى إعلان العفو الشامل عن الثوار مقابل دخولهم في دين المسيحية ، أو يغادروا البلاد دون أن يأخذوا أموالهم وممتلكاتهم إلا ثيابهم التي يلبسونها.

وللحفاظ على أرواحهم ودينهم اضطر الأندلسيون إلى الفرار إلى بلاد الإسلام، فعلى الرغم من عدم قدرة المسلمين سواء في المشرق أو في المغرب من تقديم لهم العون العسكري أو المادي الكافي، بسبب الأوضاع الداخلية المتدهورة، إلا أنهم فتحوا لهم بلادهم ، بل قطعوا البحر بقواربهم إلى ثغور الأندلس وساهموا في ترحيلهم إلى أوطانهم. إن أغلب تلك الهجرات كانت إلى الممالك المغربية وقليل منهم من هاجر إلى المشرق، فقد وصلت جماعة منهم إلى القسطنطينية ومصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام. وهاجرت أعداد كبيرة منهم إلى فاس ووهران وبجاية وتونس وطرابلس.